منهج القرآن الكريم
في تثبيت الأخلاق الإسلامية

الأستاذ المساعد الدكتور
أنس عصام الزيدي
جامعة بغداد ـ كلية التربية للبنات

منهج القرآن الكريم في تثبيت الأخلاق الإسلامية

الأستاذ المساعد الدكتور
أنس عصام الزيدي
جامعة بغداد ـ كلية التربية للبنات

المقدمة:ـ

فقد أهتم القرآن الكريم بالنظام الأخلاقي، وفصَّلهُ تفصيلاً حتى لم يبقِ شيئاً صغيراً ولا كبيراً إلا وذكرهُ لنا تعليماً لنا وتوجيهاً للأجيال المتلاحقة، مما لا نجده في الأنظمة الأخرى التي قد يكتفي بالإشارة إلى أمهات المواضيع فيها ويترك التفصيلات والجزئيات للعلماء والمجتهدين، وإذا كان باب الفقه مفتوحاً لاجتهاد المجتهدين فإن باب الأخلاق في القرآن الكريم مفتوحاً للسالكين. كما سيأتي تفصيل ذلك في طيات البحث.

ومن هنا جاءت أهمية موضوع الأخلاق في حياتنا العامّة والخاصّة وليس من قبيل الصدفة أن نجد القرآن الكريم يفصل لنا موضوع الأخلاق إن لم يقترن بهذا التفصيل أهمية بالغة.وإن أول قضية نزلت إلى الأرض وأول مشكلة حدثت كانت مشكلة أخلاقية فما حصل بين قابيل وهابيل لم يحصل إلا بسبب مشكلة أخلاقية من باب حسد قابيل لأخيه هابيل فحصل ما حصل.

ونحن في مجتمعنا اليوم لا نكاد نغادر يومنا إلا بعد أن ندخل في هذا النظام مرات ومرات شئنا أم أبينا. وعلى سبيل المثال كم مرَّة في اليوم الواحد يمكن أن نحتاج إلى نظام العبادات أو نظام الحكم أو نظام القضاء؟ وكم مرَّة نحتاج إلى النظام الأخلاقي في اليوم الواحد؟ ولو نظرنا بإمعان إلى حياتنا اليومية نجد أن هذا النظام يكاد لا يفارقنا فمنذ الصباح وحتى نهاية اليوم هو معنا في دخولنا وخروجنا وعملنا وعلاقتنا بالأهل والجيران والعمل والزوجة

والأولاد، وهذا ما جعل النظام الأخلاقي يكتسب كل هذه الأهمية. بل قد جعلهُ الرسول الكريم ﷺ وكأنه السبب الأساس في رسالتهِ عندما قال: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

وأما الدراسات السابقة في هذا الموضوع فإننا نجد الكثير ممن كتب فيه، وأكثر من كتب في هذا الباب هم أرباب السلوك الروحي والمتصوفة، ونحن الآن ولأهمية الموضوع علينا أن نفرد لهُ علماً خاصاً حاله حال الأنظمة الأخرى، فعلى سبيل المثال نجد في مناهج الدراسات الإسلامية في جامعاتنا، مواد الفقه والعقائد وعلم النفس والتفسير والحديث، وعلم الكلام، ومناهج المفسرين، وأصول الفقه وما إلى ذلك، لكن لم نجد مادّة خاصّة بالأخلاق، ولو استعرضنا مناهج الدراسة لعلمنا حقيقة الأمر، وإن وجدنا شيئاً من هذا الباب فإننا نجدهُ ضمن مادّة أخرى وليس مادة مستقلة بذاتها. والسبب في هذا يعود لأمرين أساسيين.

الأول: أن العلماء السابقين لم يكتبوا الكثير من هذا العلم باعتباره مطَبقاً في حياتهم العامّة أولاً، وما كتب فيه كان ضمن موضوع تزكية النفوس وعلم السلوك ثانياً، ومن هنا كان واضعو المناهج التعليمية في جامعاتنا الإسلامية سائرين على طريقة من سبقهم.

الثاني: التأثير الغربي وبقايا الاستعمار والعلمانية العالمية، والتغريب الحاصل في بلادنا جعل موضوع الأخلاق يعتبر ضمن موضوع العادات والتقاليد فلا حاجة لأن يدرس كمنهج ضمن مناهج الدراسة الجامعية.

واليوم نحن بأمس الحاجة إلى أمرين أساسيين.

الأول منهما: هو الاهتمام بموضوع الأخلاق دراسةً وتطبيقاً، وأن يفرد لهُ منهجاً خاصاً لاسيما في الجامعات والأقسام الإسلامية، وحتى الأقسام العلمية

الأخرى، فما قيمة العلم بدون أخلاق، وما قيمة المجتمع المتحضر إذا لم يتلبس بأخلاق الإسلام. وكما يقول الشاعر:

لـو كـان للعلـم دون التقـى شـرف لكـان خـير خلـقِ الله إبلـيس

والثاني منهما: هو العودة إلى المنهج القرآني في تثبيت الأخلاق وليس على طريقة الفلاسفة والمتصوفة مع احترامي وتقديري لهما إلا أن المنهج هو الذي استطاع أن يحول ذلك المجتمع الجاهلي المتصارع والمتنازع إلى المجتمع المثالي الذي قال عنه تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[1].

المبحث الأول

شمول النظام الأخلاقي لكافة جوانب الحياة

لو نظرنا إلى القرآن الكريم لوجدناهُ يُكثر من تناول الموضوعات الأخلاقية. وهذا لأن الأخلاق الإسلامية، لا بد أن تهيمن على كل أفعال المكلفين وأفعال المكلفين تنقسم بشكل عام إلى قسمين أساسيين.

القسم الأول: علاقة الفرد بربه وخالقه، وهذا ما يتكفل به نظام العبادات.

والقسم الثاني: علاقة الفرد بالفرد أو المجتمع أو الدولة، أي بشكل عام علاقة الإنسان بأخيه الإنسان سواءً على مستوى الأفراد أو الشعوب أو الحكومات والدول. وهذا لا شك أوسع من القسم السابق وأكثر تفصيلاً، زيادة على كونه يمتلك من الفاعلية والحيوية الشيء الكثير حيث إن الإنسان بطبعهِ اجتماعي، وهو بذلك سيحتك بأخيه الإنسان سواء كان ذلك الأم أو الأب أو الزوجة أو الأبناء أو العشيرة أو الجيران أو المجتمع أو العلاقات في العمل وهذا كلهُ يسيطر عليهِ النظام الأخلاقي.

إن جميع الأنظمة الإسلامية من عبادات ومعاملات وقضاء وحكم يمازجها

ويشاركها النظام الأخلاقي في جميع تفصيلاتها.

وسنذكر بعض الأمثلة على سبيل المثال لا الحصر: فمثلاً فريضة الحج وهي ركن من أركان الإسلام وهي ضمن نظام العبادات نجد أن النظام الأخلاقي يمازجها ويشاركها قال تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾[٢] ولا شك أن هذهِ كلها توصيات تقع ضمن نظام الأخلاق.

وأما القضاء فيقول الرسول ﷺ: (إن المؤمن سمحاً إذا باع سمحاً إذا اشترى سمحاً إذا اقتضى).

ولن نجد نظاماً شارك الأنظمة الأخرى ومازجها كما نجد ذلك في النظام الأخلاقي وهذا لهُ أهمية كبيرة، حيث أننا لو أبعدنا الأخلاق عن الأنظمة الأخرى لتحول المجتمع إلى مجتمع منزوع الرحمة يسودهم القانون والحكم والعقوبات، لا التراحم والمودَّة والألفة بين الناس، وهذا يؤدي إلى أنهُ متى أمن الناس العقوبة والقانون تحول المجتمع إلى مجتمع غاب يأكل القوي منهم الضعيف، ومن قال أن سيادة القانون تكفي لإنقاذ المجتمع ولو كان القضاء إسلامياً، فإن غابت الأخلاق والقيم الأخلاقية عن المجتمع لن ينفعهم القضاء فقط، بدليل حديث رسول الله ﷺ وهو يحذر المسلمين من أكل حقوق الغير بقوله: (أيها الناس إنكم تختصمون إلي وإنما أنا بشر وقد يكون بعضكم الحن بحجته من بعض فمن حكمت لهُ من حق أخيه بشيء فلا يأخذه فإنما اقتطع لهُ قطعة من نار). ولو أردنا أن نجرد الآيات القرآنية التي تختص بموضوع الأخلاق لسودنا في ذلك صفحات طويلة ولكن لننظر بشكل عام إلى الآيات والأحاديث التي نظمت علاقات المجتمع أو لنقل علاقات الإنسان بأخيه الإنسان بالشكل الآتي:

١- علاقة الإنسان بوالديه: قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ

إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۞ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾[٣].

٢- علاقة الإنسان بأخيه الإنسان: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٤].

٣- علاقة الإنسان بالفقراء واليتامى: قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[٥].

٤- علاقة الإنسان بجاره: قال تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾[٦]

٥- علاقة المسلم بالصغير والكبير: قال ﷺ: (ليس منا من لم يرحم صغيرنا ولم يوقر كبيرنا، ويأمر بالمعروف وينه عن المنكر)[٧].

المبحث الثاني

ارتباط النظام الأخلاقي بالعقيدة

إن النظام الأخلاقي في الإسلام يختلف عما نجده في الأنظمة والقوانين الأخرى، بل هو نظام مرتبط بالعقيدة الإسلامية، بل أحياناً نجد من خلال قراءتنا لنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، أن النظام الأخلاقي مرتبط بدخول الجنَّة والنار. كما سيأتي تفصيل ذلك لاحقاً.

فالعقيدة الإسلامية هي القاعدة التي تستند عليها مفردات الأخلاق الإسلامية، والإنسان حين يلتزم بتلك المفردات والخصال الخلقية، سواء بفعل الحسن منها أو بالكف عن القبيح منها، إنما يفعل ذلك بناءً على عقيدته الإسلامية، وبقدر ما يحمل الإنسان من معاني هذه العقيدة، ورسوخها في

نفسه، يكون راسخاً في الأخلاق، وبقدر خلو قلبه من معاني العقيدة الإسلامية تخلوا أفعالهُ وأقوالهُ من الأخلاق الإسلامية، ويكثر منهُ صدور أضدادها، وهذا ترابط حتمي بين الأخلاق والعقيدة، فمن العقيدة تنبع الأخلاق الإسلامية للفرد، ويكف عن أضدادها ووجود أضداد الأخلاق الإسلامية في الفرد دليل وعلامة على انعدام عقيدته أو ضعفها وهزالها، وقد دلت النصوص من القرآن والسنة على ذلك، إذ عقدت تلك النصوص صلة دائمة بين الأخلاق من جهة، وبين العقيدة متمثلة بالإيمان وتقوى الله من جهة أخرى.

وبيان ذلك: إن الإسلام قد جعل وجود صفات خَلقية معينة، تؤثّر تأثيراً بالغاً في الإيمان، فالكذب ينفي الإيمان، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٨] والكذب وإخلاف العهد مع الله يورث النفاق، قال تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[٩].

والوفاء بالعهد مع الناس دليل على التقوى، قال تعالى: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[١٠].

وفي السنة النبوية الشريفة الكثير من ذلك، فقد جعلت اجتماع الكذب وإخلاف الوعد، وخيانة الأمانة، والفجور في الخصومة - وهي خصال خلقية خالصة - سبباً ودليلاً على النفاق، قال عليه الصلاة والسلام: ((أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهنَّ كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر))[١١].

وفي القرآن الكريم جزاء المنافقين النار، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾[١٢]، وجعلت السنة أيضاً خيانة الأمانة تنفي الإيمان،

وغدر العهد ينفي الدين أصلاً، قال عليه الصلاة والسلام: ((لا إيمان لمن لا أمانة لهُ ولا دين لمن لا عهد لهُ))[١٣] وجعلت الخلق السيئ الرديء مع الجار ينفي الإيمان أيضاً، قال عليه الصلاة السلام: ((والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: يا رسول الله لقد خاب وخسر، من هذا؟ قال: من لا يأمن جاره بوائقَهُ، قالوا: وما بوائقَهُ؟ قال: شرُّهُ))[١٤]

وهكذا ترى في القرآن والسنة صلة ترابط دائمة، بين الخصال الخلقية الخالصة وبين الإيمان وتقوى الله تعالى نفياً وإثباتاً، رغبة من الإسلام في سيادة الأخلاق في المجتمع.[١٥]

ولذلك نجد في حديث الرسول ﷺ ذلك الوعيد الشديد لمن يتجاوز على ؟؟؟؟ بلسانه لاسيما الجار فنجد في الحديث الشريف أنهُ قيل لرسول الله ﷺ ((إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل، وهي سيئة الخلق تؤذي جيرانها بلسانها، فقال عليه الصلاة والسلام: (لا خير فيها، هي من أهل النار)[١٦].

ويقابل هذا الأمر الوعد الطيب لمن استقام على الدين والخلق بدخول الجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾[١٧] وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۞ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[١٨].

وقال تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾[١٩] وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۞ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[٢٠].

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۞ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۞ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ

أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۞ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۞ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۞ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٢١].

والآيات الواردة في هذا الباب كثيرة ولكني أحببت أن اختتم هذا المبحث بهذه الآية الكريم من سورة الفرقان، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۞ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ۞ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۞ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۞ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ۞ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۞ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۞ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۞ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ۞ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ۞ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ۞ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ۞ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ۞ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾[٢٢].

المبحث الثالث

تفصيل النظام الأخلاقي وثبوته

لو نظرنا إلى آيات الكتاب العزيز لوجدنا أنها في غالب الأحكام الفقهية تعطي الحكم العام وتترك التفصيلات والجزئيات لكل زمان بما يناسبه ولكل مكان بما يلائمه، ويأتي دور الفقيه والمجتهد والمفسر، ليعطونا الأحكام بما جادت به عقولهم وعلومهم، وإذا نظرنا إلى نظام الحكم مثلاً فإننا نجد أن هناك بضعة آيات كريمة أشارت إلى ضرورة وجود الحاكم وإلى الشورى، وهي

أحكام عامة ولم تتناول جزئيات ودقائق وتفاصيل نظام الحكم. وهكذا في باقي الأنظمة الإسلامية فقد تناولها القرآن الكريم على شكل أساسيات وثوابت وترك الجزئيات والتفصيلات لحكم الحاكم واجتهاد المجتهد وتفسير المفسر، لأنها بطبيعة الحال متجددة بتجدد الزمان والمكان، وعلى سبيل المثال زكاة الفطر مثلاً صاع من حنطة أو شعير أو ما إلى ذلك، بينما نجد في زماننا من أفتى بإخراج القيمة فما حاجة الفقير اليوم إلى صاع الشعير أو الحنطة، وهناك من كتب في فقه المقاصد أو مقاصد الشريعة ومرونتها وشمولها للزمان والمكان. وهذا كلهُ لا نجدهُ في النظام الأخلاقي حيث أننا نجد أن القرآن الكريم قد فصّل الأخلاق تفصيلاً كبيراً ولم يترك مجالاً لمجتهد أن يجتهد في هذا الباب إلا القليل أو دونه وذلك لأسباب. منها:

أولاً: أن النظم الأخرى قابلة للتجدد والتطور كنظام المعاملات والحكم بطبيعتها، ولو جاءت تفصيلية لجمدت على ما هي عليه يوم نزلت. وهذا فيه مشقة كبيرة على الأمة. بينما النظام الأخلاقي في الإسلام جاء تفصيلياً لأنه ينظم علاقة الإنسان بأخيه الإنسان من حيث هو إنسان، وهذهِ العلاقة لا تتغير بمرور الزمان وتغير المكان، فأخطاء النفس الإنسانية ودسائسها هي هي منذ أن خلق الله تعالى الإنسان وإلى قيام الساعة. فالحسد والبغضاء والشحناء وسوء الظن والكبر والغش والكذب وشهادة الزور والطمع وما يقابلهما من قناعة ومودّةوإخاء وحسن ظن وتواضع ونزاهة وصدق وعفة وكرم وغيرها من صفات هي هي لا تتغير ولا تتبدل، ومن هنا جاءنا القرآن الكريم بنظام أخلاقي تفصيلي أشد التفصيل، ولم يدع لنا مجالاً للاجتهاد أو التغيير والتبديل. فهو نظام ثابت لا يحتاج منا إلا إلى التطبيق والنزول عند حدّهِ.

ثانياً: قلنا فيما سبق أن النظام الأخلاقي مرتبط بالعقيدة الإسلامية بل بدخول الجنة والنار كما أوضحنا ذلك سلفاً، ولأهمية الأخلاق في الإسلام جاءت كما جاءت العقيدة الإسلامية، مفصلة وثابتة ولا مجال للاجتهاد فيها، فكما أعطانا الله - سبحانه وتعالى - صفاته وأسماءه وليس لنا أن نزيد عليها أو ننقص منها، لأنها ثابتة لا تتغير، فكذلك كان النظام الأخلاقي لأهميتهِ ولارتباطه بالعقيدة وبدخول الجنة والنار فقد جاء بهذا التفصيل.

ثالثاً: لو نظرنا إلى قرارات الدول والحكومات والأنظمة الأرضية فإننا نجد أنها تضطر لأن تسن القوانين المهمة باسم أعلى سلطة في الحكومة أو الدولة لضمان التطبيق من عامة الناس، فعلى سبيل المثال فالقرار الموصوف بأنهُ قرار جمهوري أو من ديوان الرئاسة أو ديوان الملك لا شك أنّهُ سيمتلك إمكانية للتطبيق اكبر من القرار الصادر من وزارة أو هيئة أو مديرية. ومن هنا نجد أن الأخلاق الإسلامية هي أوامر صادرة من الله تعالى أولاً ومرتبطة بالعقيدة الإسلامية ثانياً وبدخول الجنة والنار ثالثاً فأنّى لمجتمع سمع قول الله تعالى – في جانب من جوانب الأخلاق الإنسانية ثم لا يقول سمعاً وطاعة.

رابعاً: إن للقرار أثر في قبول النفس الإنسانية لهذا الأمر أو ذاك، وإن كثرة الآيات القرآنية التي تتحدث عن الأخلاق وتفصيلاتها لا يترك مجالاً للنفس المؤمنة إن تتجاوز هذا الكم من الآيات والأحاديث ثم يرتكب ما نهى الله تعالى عنه ورسولهُ.

خامساً: لو نظرنا إلى كبائر الذنوب لوجدنا أنّ اغلبها هي قضايا أخلاقية وإن اغلب هذهِ الكبائر مما لا حدّ فيه فقد عدّ بعض العلماء الكبائر بسبع وسبعين كبيرة، والتي ممكن أن تضبط منها بشهادة

الشهود وإقامة الحد عليها لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، فمن هنا كان تفصيل الأخلاق في القرآن الكريم لتنطبع النفس الإنسانية على الخلق القويم من خلال كثرة سماعها وتفصيلاتها في القرآن والسنة. وحيث أن اغلب الجرائم الأخلاقية والكبائر منها لا يمكن أن تضبط بسهولة فالكذب والغش وقول الزور والرياء والحسد والغيبة والنميمة، فقد أكد القرآن الكريم والسنة النبوية على تفصيلاتها وجعلها سبباً لدخوله الجنة والنار ليكون للإنسان المسلم رادعاً من نفسهِ على نفسهِ لتكون أخلاقُهُ سبباً لنجاتهِ من النار ودخولهِ الجنة.

المبحث الرابع

امتلاك النظام الأخلاقي الوسائل والضمانات الكفيلة بتطبيقه

بعدما ذكرنا تفصيل الأخلاق الإسلامية في القرآن الكريم والسنّة النبوية وشمولها، نشرع الآن بالوسائل والضمانات التي يمتلكها النظام الأخلاقي ليضمن تطبيقها على أرض الواقع، لا أن تبقى مجرد شعارات ومثاليات ليس لها على أرض الواقع وجود. ومن هذه الضمانات:-

أولاً: إعطاء الأخلاق صفة القانون المقترن بالجزاء:

فقد ذكرنا فيما سبق أن الأخلاق مُرتبطة بالعقيدة الإسلامية وبدخول الجنّة والنار وبعد هذا نجد أن النظام الأخلاقي في الإسلام جعل هناك بعض العقوبات الصارمة على الجرائم الأخلاقية ليخلص المجتمع من الرذيلة ويجعل المجتمع نظيفاً تسودهُ الأخلاق الرفيعة، ولم يكتفِ الإسلام بمزج الأخلاق بالعقيدة الإسلامية وإنما شرع بعض العقوبات الدنيوية، فمن لم تزجرهُ الآيات الكريمة والترغيب والترهيب فقد يزجرهُ سوط القاضي أو ربما يرجم بالحجارة حتى الموت، وإن يشهد عقوبتهُ هذهِ المؤمنون ليتعظ من كان في قلبه ميل لفعل

الفاحشة، أو لوجود هوى في نفسه أو ضعف إيمان بالآخرة، وليس الحدود فقط وإنما أباح الشارع للقاضي أنواعاً من التعزيرات يقررها وفقاً لقواعد وشروط الشريعة الإسلامية، لتضمن الجماعة المسلمة خلو المجتمع من هكذا منغصات ورذائل مؤذية. بل نجد أحياناً في أحاديث الرسول ﷺ ما يؤشر بالخطر الداهم على الأمة إذا هي رضيت ببعض الجرائم الأخلاقية، كما في قوله ﷺ ((إنما اهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوهُ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد"))[٢٣]

وقد ذكر القرآن الكريم عقاباً جماعياً دنيوياً يصيب المجتمع إذا هو ساءت أخلاقه، وتعاطى المنكرات، وأقرها بين ظهرانيه، قال تعالى: ((وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً))[٢٤]

وبوجود الجزاءين الدنيوي والأخروي، يضمن الإسلام أن يكون ما شرعهُ في ميدان الأخلاق ديناً واجب الأتباع، وقانوناً ملزماً للجميع، يمكن الأخلاق من السيادة، لتأخذ طريقها في المجتمع من مثل وقيم إلى تطبيق وعمل.

ثانياً: وسائل اكتساب الأخلاق وتقويمها:

يمتلك النظام الأخلاقي في الإسلام جملة من الوسائل الفريدة، التي تحقق اكتساب الأخلاق وتقويمها، وتمكن للأخلاق من السيادة في المجتمع، وتحولها من النظرية إلى التطبيق. ولعلَّ قائلٍ يقول أن لكل إنسان صفاتهُ الخلقية التي جبل عليها، فكيف أن يغيرها ومن هنا لا بد أن نقرر أن الأخلاق والعادات كلها يمكن أن تتغير وذلك للأسباب الآتية:-

١- أن الله سبحانه وتعالى كلف الإنسان بالأخلاق الحميدة ونهاه عن الأخلاق السيئة، والقاعدة الشرعية تقول لا تكليف إلا بمقدور، فكيف يكلف الله تعالى الإنسان بما لا يقدر عليه بل كيف يحاسبهُ على أمر قد

جبلهُ عليه، فلو قلنا على سبيل المثال أن الله تعالى لا يدخل الجنة إلا من كان لون بشرتهِ أسمر وطولهُ كذا ووزنه كذا أليس للبشر أن يقول يا رب تدخلني النار بذنب لم ارتكبهُ وقد وهبتني هذا اللون والطول. وهكذا فلو كانت الأخلاق لا تتغير ولا تتبدل كان من المحال أن يكلف الله سبحانه وتعالى الإنسان بها. والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾(٢٥).

ومن ذلك يتبين أن كل إنسان يمتلك القدرة والقابلية والأهلية، لاكتساب الجيد من الأخلاق والتحلي بها، والتخلي عن الرديء منها، والنفس الإنسانية في أصل خلقتها قد ألهمت معاني الفجور ومعاني التقوى، والإنسان نفسُهُ هو الذي يدنسها بتنمية معاني الفجور فيها، أو يزكيها بتنمية معاني التزكية فيها، بفعل من عنده، وجهد من عنده، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾(٢٦).

٢- يقول علماء الاجتماع والتنمية البشرية أن كل العادات يمكن أن تتغير، بحدود واحد وعشرين يوماً، بشرط إذا كان الشخص يريد التغيير. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(٢٧).

٣- مشاهدة الواقع التاريخي للصحابة الكرام فكم منهم كان كافراً جباراً في الأرض غليظ القلب جافي الطبع فصار من صحابة رسول الله ﷺ تقي النفس طاهر الثوب والبدن رفيق بإخوانه، وقد تغيرت صفاتهُ وانقلبت رأساً على عقب بمجرد أن خالط الإيمان بشاشةَ قلبهِ. والتاريخ وسيرة أصحاب رسول الله ﷺ ما زالت ماثلة بينَ أيدينا.

الخاتمة:ـ

توصل الباحث إلى جملة من النتائج والتوصيات، نجملها فيما يلي:

١- إن النظام الأخلاقي لهُ خصائصه المحددة في القرآن الكريم، ومن أهمها:

أ - شمول النظام الأخلاقي لكافة جوانب الحياة.

ب - ارتباط النظام الأخلاقي بالعقيدة الإسلامية.

ج - النظام الأخلاقي نظام تفصيلي لا يشابه الأنظمة الأخرى.

د - النظام الأخلاقي غير خاضع للتطور والتجدد إلا في نطاق ضيقٍ جداً. وذلك لأنهُ يعالج علاقات الإنسان من حيث هو إنسان.

هـ - الآيات القرآنية التي تحدثت عن الأخلاق نجد أنها أحياناً ارتبطت بدخول الجنّة والنار ليكون تطبيقها أكبر وأثرها أعمق في النفس الإنسانية.

و - إن بعض الجرائم الأخلاقية والتي عدَّها العلماء من الكبائر والتي ليس من السهولة ضبطها والشهادة عليها، نجد أن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية شدّدت العقوبة عليها، بل قد وصفت فاعلها بدخول النار والعياذ بالله.

٢- إن النظام الأخلاقي في الإسلام يمتلك الوسائل والضمانات الكفيلة بتطبيقه، ومن أهم هذهِ الضمانات:-

أ - إعطاء الأخلاق صفة القانون المقترن بالجزاء.

ب - هناك وسائل لاكتساب الأخلاق وتقويمها.

٣- وأما الوسائل التي تمكن الفرد المسلم من اكتساب الأخلاق الحميدة فهي:

أ - العلم التفصيلي بمعاني الأخلاق الإسلامية.

ب - الاستحضار الدائم لمعاني الأخلاق الحميدة والسيئة.

ج - الاهتمام بتعميق معاني العقيدة الإسلاميّة لارتباط الأخلاق بها.

د - التزكية الدائمة للنفس بممارسة العبادات والطاعات الواجبة والمندوبة.

هـ - معالجة الخصلة الخلقية السيئة بضدها.

و - زرع الخلق الحسن في النفس الإنسانية بطريق التكلف.

ز - اختيار البيئة الصالحة والابتعاد عن البيئة السيئة.

ح - اتخاذ مثل أعلى للاقتداء بهِ.

وأما أهم التوصيات التي يوصي بها الباحث فهي:

أولاً: لا بدّ من إعادة النظر في مناهج الدراسة الجامعية بشقيها الإنساني والعلمي وليحصل موضوع الأخلاق على نصيب منها.

ثانياً: لم ينل موضوع الأخلاق الإسلامية حقهُ من الدراسة والنظر في ظل غياب الحرية الفكرية ولغلبة قوانين المستعمر في المرحلة الماضية.

ثالثاً: ضرورة ممارسة مؤسسات المجتمع المدني والجمعيات الثقافية دورها في تعميق معاني الأخلاق الإسلامية في مجتمعنا.

رابعاً: تقع على عاتق المؤسسات الإعلامية تبعة كبيرة لمواجهة المد الكاسح والهجمة الشرسة ضد أخلاقنا الإسلامية من خلال الأفلام والمسلسلات الهابطة والتي يستقبلها مجتمعنا ليل نهار.

خامساً: على المؤسسات الدينية والتعليمية أن يكون لها تواصل مع الإعلام ليتسنى لها أخذ الدور المناسب وتوعية الناس بمبادئ الدين والخلق.

Abstract

I discussed in this humble research the properties of the ethical system. The research includes four chapters, the first being the preface and the last being the conclusion. I discussed in the preface the importance of ethics in general, and the importance of its details in particular, the reasons why the Quran dealt with ethics with great detail, The need of our society for ethics in general, and the Quranic approach in corroborating ethic in particular. I also discussed previous studies of this topic, then, the need to dedicate a lesson for ethic within the curricula of the Islamic Universities in particular, and the Academic Universities in general.

I discussed in the First Chapter: the containment of ethics for every aspect of human life, the types of human relationships, the Quranic verses that deal with human relationships, how ethic in Islam is relevant to all other ethical systems, and how important that is.

I discussed in the second chapter: the relevancy of the ethical system with the Islamic belief, the Islamic belief being the basis on which the elements of human ethic is built, and the Quranic texts that denotes to that.

I discussed in the third chapter: the ethical system being detailed and constant, the reasons that made the ethical system to be detailed to that level and the wisdom beyond that, and the difference between it and other orders.

I discussed in the forth chapter: the inclusion of the ethical system of the approaches and guarantees adequate to practice it.

The first: designating ethics a law associated with punishment.

The second: the possibility of ethics to be gained and rectified.

And then comes the role of the conclusion which includes the most important resultants achieved by the researcher, and his recommendations.

هوامش البحث

(١) الفتح / ٢٩
(٢) البقرة / من الآية ١٩٧
(٣) الأسراء ٢٣-٢٤
(٤) الحجرات / ١٠
(٥) البقرة / ٢١٥
(٦) النساء / ٣٦
(٧) رواه الترمذي / (١٨٤٤)
(٨) النحل / ١٠٥
(٩) التوبة / ٧٧
(١٠) التوبة / ٤
(١١) أخرجه البخاري (٣٣) ومسلم (٨٨).
(١٢) النساء / ١٤٥
(١٣) أخرجه الإمام أحمد في مسندهِ
(١٤) رواه البخاري برقم (٥٥٥٧)، ومسند الأمام أحمد برقم (٧٥٣٩)، وانظر الترغيب والترهيب للمنذري ج٣ / ص ٣٥٣
(١٥) ينظر النظم الإسلامية / منبر البياتي ص ٨٨-٨٩
(١٦) ينظر الأدب المفرد / للبخاري / رقم الحديث (١١٩)
(١٧) فصلت / ٣٠
(١٨) آل عمران / ١٣٣-١٣٤
(١٩) الرعد / ٢٢
(٢٠) النازعات / ٤٠-٤١
(٢١) المؤمنون ١-١١
(٢٢) الآيات ٦٣-٧٦
(٢٣) رواه البخاري (٣٢١٦) ومسلم (٣١٩٦) والترمذي (١٣٥٠) والنسائي (٤٨/٥) وأبو داود (٣٨٠٢) وأبن ماجة (٣٥٣٧).
(٢٤) الأنفال / ٢٥
(٢٥) البقرة / ٢٨٦
(٢٦)الشمس / ٧-١٠
(٢٧) الرعد / ١١